الجزء الأول

د. موسى أبو مرزوق

مشوار حياة

ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال

إعداد: شاكر الجوهري

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل الأول

الهجرةُ واللجوء

نكبة 1948

مسجد قرية يبنا

أحد الأسوار القديمة الموجودة في قرية يبنا

مئذنة المسجد في يبنا

بئر المياه في قرية يبنا

مزار الصحابي الجليل عبد الله بن أبي السرح رضي الله عنه في قرية يبنا، حيث استولى عليه اليهود الصهاينة، ويظهر في الصورة أحد الحاخامات يتلو من التوراة

الهجرةُ واللجوء
نكبة 1948

طفولة بالغة الشقاء عاشها ذلك الرجل، الذي أهّلته عصاميته لنيل شهادة الدكتوراه في الهندسة الصناعية من الجامعات الأمريكية. ويكاد المرء لا يُصدق روايات الشقاء التي تصدر عنه وهو في كامل أناقته، وقد انتصف به العقد السادس من العمر، وبصوت بالغ الرقة والعذوبة والنعومة، لا ينبئ بتاريخ حافل من العذاب تتالت مراحله منذ أن ولدته أمه في 1951/2/9 داخل إحدى خيم مخيم رفح للّاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة وكانت بمثابة عيادة صحية.

ذلك هو د. موسى أبو مرزوق العائد حرّاً في أيار/ مايو 1997 من السجن الأمريكي إلى الأردن، لا إلى وطنه فلسطين، والذي تجري على ترابه أحداث، ربما تكون أكثر تعقيداً وصعوبة من مراحل عذاب ذلك المشرد الفلسطيني، الذي ما يزال يبحث عن نهاية لها.

كانت ولادة موسى مثل ولادة كل أطفال اللاجئين الفلسطينيين الذين اضطرهم الاحتلال الصهيوني إلى ترك منازلهم وقراهم وبلداتهم ومدنهم، والانتقال إلى حياة شديدة الصعوبة في مخيمات تظل عشوائية، وتخلو من أبسط الخدمات التي يحتاجها المجتمع الإنساني في أواسط القرن العشرين، مهما سعت وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) The United Nations Relief and Works Agency for Palestine Refugees (UNRWA) أن تقدم من مساعدات، وتقلّل من حياة الفوضى في المخيمات من خلال الضوابط التنظيمية واتخاذ إجراءات مثل كتابة اسم كلِّ رب أسرة على باب الخيمة التي كتب القدر على أفرادها أن "يتكوَّموا" فيها.

موسى كان ترتيبه السادس من بين إخوته العشرة وأوّل مواليد المهجر لوالديه. فقد سبقه إلى حياة البؤس والشقاء الفلسطيني: محمد، وحليمة، ومحمود، وجمعة، ويوسف. وتلاه: حلمية، وسميرة، وانزهار، ورحاب.

غير أنّه زار يبنا شاباً بعد حرب 1967. وقال عن تلك الزيارة: أخذني والدي لنزور قريتنا يبنا، وإذا بنا برابية جميلة أمامها سهل فسيح الأرجاء، تحيط بالهضبة المزارع والأشجار من كل جانب، وبقايا القرية من بيوت قديمة وقبور، فهذا قبر الشيخ العطار، الذي درس في الأزهر، وسكن القرية قادماً من "الشرقية" في جمهورية مصر العربية. ولعل مقبرة القرية كانت تبدو كمنتزه، وهذا المسجد القديم الذي يعود تاريخه إلى بداية الفتح الإسلامي لفلسطين، ومسجد به قبر يتلو عليه أحد الحاخامات من التوراة بعض التراتيل، مدّعياً أنه نبيٌّ من أنبياء اليهود. وبجانب القبر مُلقَى شاهدٌ مكتوبٌ عليه هذا قبر الصحابي الجليل عبد الله بن أبي السرح، وكان هذا الصحابي يسكن مصر مع أميرها عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، ثم ركب البحر إلى قبرص فاتحاً، ثم إلى فلسطين. وبقي في فلسطين مع مَنْ فتح قبرص واستقر له المقام فيها وتوفاه الله في يبنا ودُفن فيها، وأقام الناس له قبراً ومسجداً. وبعد الهجرة اعتبره اليهود أحد حاخاماتهم، كما جرت العادة عندهم، وأقاموا مدرسة داخل المسجد وحوّلوه إلى كنيس لهم، ولكنهم تركوا الشاهد (شاهد القبر) شاهداً. أما أهل القرية فقد كانوا يتخذونه مزاراً، فيقولون: إنّ هذا مقام سيدنا "أبو هريرة"، صاحب رسول الله ﷺ وكان أهل القرية ومَن حولها يتخذونه مكاناً للوفاء بنذورهم، وبجواره كانت أرضٌ فسيحة للدبكة ولأفراحهم ولسباق الخيل. وبئر القرية وخزّان المياه ما زالا قائمَيْن وشاهدَيْن على أنَّ لهذه الأرض مُلاّكاً، وهناك بعض البيوت التي ما زالت قائمة... بعضها مسكون، والبعض الآخر مهجور. وبالطبع هناك من البيوت التي كانت تُعدّ قصوراً قبل الهجرة وطُرِد سكانُها، كما هو حال دار الجمل (تجار الحمضيات في القرية).

ويضيف أبو مرزوق: لقد كانت قريتنا جميلة، رسمها المولى وحباها من الجمال الكثير، وموقعها صنع لها مكانة أخرى؛ حيث يمر من الجهة الشرقية خط سكة الحديد القادم من اللد مروراً بها، متجهاً جنوباً إلى غزة، ثم رفح، ثم العريش، فالقنطرة في الأراضي المصرية، ومن الغرب البحر، وإن كانت المسافة الفاصلة بينه وبين القرية تصل إلى 11 كم. ويخترق القرية الطريق الذي يؤدي إلى البحر، عبر كثبان رملية وكروم العنب وأشجار التين. ما زلتُ أذكر شجرة الجميز التي حدثني

عنها أبي بجوار منزلنا المتواضع المبني من الطين، ووجدت الشجرة ما زالت واقفة، وأكلت من ثمرها، حيث إنها شجرة عجيبة يستمر طرح ثمرها سبع مرات في العام، ونقول عنها: ذات سبعة بطون، حيث إنّ ثمرها يتجدد. ويوجد بجوار منزلنا منزلٌ من جيرٍ تسكنه عائلة يهودية جاءت من اليمن، ووجدت عندها عادات أهل اليمن. وسألت أفرادَها لمَ تسكنون في منزل ليس لكم، فأجابوا بأن الدولة منحتهم هذا البيت. وفي نهاية الزيارة لبلدتي وبلدة آبائي وأجدادي، نظرت إلى والدي الذي جال بصره في بقايا بيته المهدم، وذكرياته مع جيرانه، وغرسه الذي أثمر في يبنا وجناه غيره، وذكريات لا تُنسى، وحسرات في القلب ودموع ملأت المُقَل وكلمات تردد:

على بلدي المحبوب وديني زاد وجدي والبعد كاويني

حين وُلِدَ موسى في ذلك اليوم "الشباطي" قاسي البرودة، كان والده أبو محمد لا يعرف إنْ كان سيتمكّن من تأمين قوته وقوت عياله لليوم التالي، بعد أن استقرت بهم رحلة التشرد من قريتهم يبنا في مخيم رفح للاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة.

تتبَعُ يبنا لواء اللد قضاء الرملة، وتقع على مسافة تقارب 15 كم منها إلى الجنوب، كما أنها تبعد مسافة مماثلة إلى الشمال من غزة وهي قرية رومانية معناها "بيت الرب".

ذاكرة الحاج أبو محمد لا تسعفه بالتواريخ، وهو الذي انتصف به العقد التاسع من عمره، لكنه يسرد علينا—حين جاء من رفح إلى عمّان للسلام على ولده العائد من السجن الأمريكي—فصولاً من سفر التشرد والعذاب الفلسطيني (تُوفِّيَ الحاج أبو محمد في رفح في 1999/6/11).

تجاور يبنا مجموعة قرى فلسطينية أصغر، وأقل شأناً منها وأقل سكاناً مثل القبيبة، والمغار، وبشيت، وبرقا، وكانت تبلغ مساحة القرية المنكودة بالاحتلال قرابة الأربعة كيلومترات مربعة، وذلك غير أراضيها الزراعية.

لم يكُن أبو محمد من كبار المُلّاك في قريته، فهو لم يكُن يملك سوى الدار التي يسكنها وأسرته، علاوةً على مساحة من الأرض تقدّر بخمسة دونمات (الدونم

يساوي ألف متر مربع) كانت مزروعة بالتين والعنب. وكانت القرية عبارة عن مَصيف بجوار الساحل الرملي.

وبجوار وادي يبنا كانت الأسرة تقضي فترة الصيف، غير أن الحال كانت مستورة مع أبو محمد. ولم يحدث أن نام أحدٌ من أفراد أسرته يوماً دون أن يتناول طعام العشاء.

ويتحدث أبو محمد بأسىً عن الظلم خلال تلك السنوات الذي جعل أسرته لا تملك أرضاً، ذلك أنّ جده لأبيه هرب في أثناء تسجيل الأراضي في العهد العثماني حتى لا يدفع ضريبة العشر.

كان عدد سكان يبنا يقارب الـ 15 ألف نسمة، وكانت بذلك الأكبر بين القرى المجاورة. ولذلك فقد اعتمدت عصابات الصهاينة (الهاجاناه Haganah، والأرغون Irgun، وشتيرن Lehi) خطةً لاحتلال هذه القرية تقضي بمهاجمة القرى الصغيرة محدودة السكان أولاً، بحيث يتمُّ تهجيرُ سكانها في كل اتجاه، بما في ذلك توجّه بعضهم إلى يبنا، بهدف إرباك أهلها وإثارة الفزع بينهم، ومحاولة تحاشي خوض معركة كبيرة معهم.

الهجوم الأخير استهدف قرية بشيت التي تقع على مسافة كيلومترين فقط من يبنا، التي فُرِضَ الحصارُ عليها. وكانت قد سبقته هجمات على القرى الصغيرة واحدة إثر أخرى، ولم يكن يزيد عدد سكان أكبرها عن الخمسة آلاف نسمة. ووفقاً لِما خططت له عصابات الصهاينة، فقد هَجرَ أهالي هذه القرى منازلهم إلى يبنا ليحدّثوا أهلها عن الويلات والفظائع الوحشية التي حلّت بهم على أيدي أفراد هذه العصابات.

والواقع أن رجال يبنا لم ينتظروا قوات الاحتلال داخل منازلهم. فقبل أن تتعرّض قرية بشيت للهجوم، كان قد توجّه إليها 40 مقاتلاً من يبنا لنجدتها، حيث شارك أهالي يبنا في معركتين سبقتا احتلال بشيت. المعركة الأولى قُتِلَ فيها اثنان من أفراد العصابات الصهيونية، وقد عاد رجال يبنا إلى قريتهم رافعين رأسَ أحدهما على سيف، وجرى الطواف به في شوارع القرية، وذلك في المدرعة التي تمَّ الاستيلاءُ عليها في معركة بشيت.

وكما كان متوقعاً، فقد حشدت عصابات الصهاينة قوات إضافية لمعاودة الهجوم على بشيت، التي توجّه إليها في هذه المرة 60 رجلاً من يبنا، كانت نصف أسلحتهم غير صالحة، ولم يكُن أي منهم يحمل أكثر من 10–15 طلقةٍ فقط. أما القوات المقابلة، فقد كانت كاملة السلاح والذخيرة والتجهيزات. وقد أسفرت هذه المعركة غير المتكافئة عن سقوط خمسة شهداء من أهالي يبنا، واحتلال بشيت، ومطاردة من بقي فيها من المجاهدين الفلسطينيين.

بسقوط بشيت لم يكُن قد تبقّى غير يبنا فقط لم تدخلها العصابات الصهيونية. وخشية تعرضهم لمجازر وحشية كالتي تعرّض لها أهالي القرى المجاورة، بدأ أهالي يبنا يتركون قريتهم حاملين معهم ما خفَّ وزنُه وغلا ثمنه.

أبو محمد قاد أسرته، الزوجة والأطفال إلى بلدة أسدود، التي كانت الأقرب إلى يبنا وهي تتبع لواء اللد قضاء الرملة؛ إلى منزل قريب من دار محمد يوسف النجار (الشهيد لاحقاً أبو يوسف النجار، عضو اللجنة المركزية السابق لحركة فتح)، الذي سُجِن هو الآخر لاحقاً في رفح.

وقد دخلت الأسرة المنكوبة أسدود، بالتزامن مع دخول الجيش المصري، الزاحف من الجنوب، مما جعل الأمل يراود أهالي يبنا بأن يعيدهم الجيش المصري إلى بيوتهم وحقولهم. وظلَّ هذا الأمل الجميل يراود اللاجئين في أسدود لثلاثة أشهر، إلى أن انسحبت القوات المصرية من أسدود ذات يوم، في اتجاه الجنوب دون أن تواصل تقدمها شمالاً.

انسحاب الجيش المصري سبقه هجوم إسرائيلي متواصل بواسطة الطائرات التي كانت تقصفه بالقنابل، وتلقي عليه خزانات "النابالم".[1] ومع انسحاب القوات المصرية بدأت حلقة جديدة من حلقات الهجرة، قادت الأسرة المنكوبة إلى قرية حمامة، حيث باتت فيها ليلة واحدة فقط، لتتابع مسيرها في اليوم التالي إلى بلدة المجدل... ذلك أن الهجوم الإسرائيلي امتدَّ إلى حمامة التي قُتِلَ مختارها على أيدي العصابات المهاجمة قبل أن تنكفئ مؤقتاً.

[1] النابالم هو سائل هلامي gel قابل للاشتعال ويستخدم في الحروب، يلتصق بالجلد ويؤدي إلى إحداث حروق فيه وتشويهه.

وبعد قضاء ليلة أخرى في المجدل تتابع المسير إلى قرية هربيا، التي أمضت فيها أسرة أبو محمد ليلةً أخرى كانت فاصلةً في رحلة الهجرة المنهكة على الأقدام، التي اضطرت أم محمد في إحدى مراحلها إلى ترك وليدها يوسف على الأرض، لكنها عادت إلى التقاطه بعد أن ابتعدت عنه بضع خطوات، ذلك أنه في هربيا تمكن أبو محمد من استئجار جِمَال أقلّت أسرتَه هذه المرة إلى مدينة غزة، حيث أقامت الأسرة لمدة 15 يوماً في بيارة برتقال، انتقلت بعدها إلى خان يونس حيث أقامت فيها لمدة سنة، ثم إلى رفح، حيث تواصل الأسرة حتى الآن الحلم بالعودة إلى يبنا.

في رفح صنع أبو محمد خيمة من أكياس الخيش أقامت فيها أسرته قرابة الخمسة أشهر، قبل أن تمنح وكالة الأونروا خيمة لكل عائلة فلسطينية مهاجرة كُتِبَ اسمُ ربّ الأسرة على كل واحدة منها.

قبل أنْ توزع الوكالة الخيام، لم تكُن الخيمة التي صُنِعَت من أكياس الخيش تكفي لاستيعاب أسرة أبو محمد أو تفي بالغرض، وهي التي أُقِيمت قرب السياج الفاصل بين الأراضي التي احتلها الصهاينة، وبين الأراضي التي لجأ إليها أهالي الأراضي المحتلة (1948) ليواصلوا النظر إليها على مدى سنوات العمر اللاحقة عبر ذلك السياج اللعين.

ذات يوم، توجّه أبو محمد وابنه البكر محمد إلى معسكر إنجليزي ظلَّ مهجوراً بعد أن غادرَتْه قوات الانتداب البريطاني تاركة فيه خيماً وشوادر منوعة على مساحة من الأرض تبلغ عشرة دونمات، ولم تكُن أيّ جهة قد وضعت يدها على ذلك المعسكر أو استلمته، وقد عاد أبو محمد وابنه بخيمتين للأسرة. وأغلب الظن أنّ العديد من الأسر الفلسطينية قد فعلت ذلك أيضاً. فالشعب الذي أضاع الإنجليز وطنه وأرضه، لا أقل من الحصول على خيم تُؤخَذ من معسكراتهم.

لا أحد يمكنه أنْ يتصور عذابات رحلة الهجرة التي لم يكُن أقساها اضطرار أم محمد إلى التخلي عن طفلها يوسف لبضع خطوات، قبل أن تعيدها إليه نوازع الأمومة. فقد كان الأشد والأقسى من ذلك هو تأمين لقمة العيش في أثناء وبعد رحلة التشرد.

وإذا كان البحث عن استمرارية الحياة قد دفع بالأسرة المنكوبة إلى مغادرة يبنا، فإن البحث عن استمرارية الحياة قاد أبو محمد، والكبار من بين أطفاله، إلى يبنا من محطات الهجرة المتتالية، في عدة رحلات مكوكية بالغة العذاب، هدفها في هذه المرة إحضار طعام يقتات منه الصغار. وقد نجحت هذه الرحلات في نقل ما يزيد عن 32 كيساً من القمح كانت قد تُركَت في المنزل المهجور. كما تمَّ نقلُ كامل عفش ذلك المنزل عبر رحلات عذاب أخرى، لم يكُن المرء خلالها يواجه تعب المسير على الأقدام فقط، كما في رحلة الهجرة الأولى، لكنه كان في هذه المرات يواجه احتمالات الموت مع كل خطوةٍ يقطعها في التسلُّل خلف خطوط العدو. لكنَّ الله سلَّم ولطف.

ولم يكُن ممكناً أنْ تتم عمليات النقل مشياً على الأقدام، فهذا غير مُتصوَّر. كان لا بُدّ من استئجار جِمال في إحدى المرات، وسيارة في مرةٍ أخرى، وشراء حمار في مرةٍ ثالثة وهكذا.

وبعد أنْ انتهت مهمة الحمار، يقول أبو محمد إنه باعه في إسدود، كما أنه باع أغلبَ أكياس القمح ولم يبقَ لأسرته غير أربعة أكياس فقط، لكنّه اضطُرَّ إلى شراء حمار آخر واصل معه رحلة العذاب إلى خان يونس.

أكياس القمح التي احتفظ بها أبو محمد كفت استهلاكه وأسرته لمدة سنة كاملة، قبل أن تبدأ الوكالة بتقديم المؤن للاجئين الفلسطينيين. وقد اضطُرّ أبو محمد للعمل خلال رحلة التشرُّد عاملاً زراعياً على "الطورية" بأجرٍ يومي مقداره ثمانية قروش (الجنيه المصري أو الفلسطيني يساوي 100 قرش).

ويضيف ولدُه اللواء محمود أبو مرزوق قائد الدفاع المدني في غزة سابقاً، الذي ساعده في تذكر بعض أحداث رحلة العذاب الأولى، إن حال أسرة والده كانت أفضل من حال غيرها من أُسَر اللاجئين الفلسطينيين في ذلك الوقت. فقد عمل والده في عدة مجالات إلى جانب العمل الزراعي. فقد كان يقوم بغزل الطواقي التي كان يبيع الواحدة منها بمبلغ يتراوح بين 15 إلى 20 قرشاً، وذلك حسب جودتها، وكان يغزل في كل يوم طاقية أو اثنتين. ثم إنّ حال الأسرة تحسَّن في رفح، إذ قام أبو محمد بتسيّيج دونمين من الأرض، وأخذ يزرعهما بالتبغ والبطاطا والبندورة ومختلف الخضروات، وكان يزوّد الأسرة بحاجتها من هذه المنتوجات ويبيع الفائض في السوق.

وإلى جانب الزراعة، فقد كان أبو محمد يعمل في سنوات اللجوء الأولى كعامل مياومة لدى قوات الطوارئ الدولية، أو لدى الجيش المصري. وحين كان يخفق في العثور على عملٍ ليوم، أو لعدة أيام، لم يكُن يتوانى عن العمل في التحطيب. ولم يكُن سهلاً في تلك الأيام الحصول على أيّ عمل في مجتمع بدائي يخلو من أيّ بُنيةٍ تحتية. وقد كانت مساعدات وكالة الأونروا هي مصدر الدخل الرئيسي لمعظم الأُسَر.

هذه هي بيئة البؤس التي وُلِدَ فيها الطفل موسى أبو مرزوق في شتاء سنة 1951. وكان منذ سنواته الأولى يستمع إلى بعض تفاصيل رحلة الهجرة بالغة العذاب من يبنا إلى رفح، فقد كانت هذه هي موضوعات أحاديث جلسات السَمَر في مخيمات اللاجئين، ومن بينها مخيم يبنا في رفح الذي وُلِدَ فيه موسى. لقد كان يجلس رجال أو نساء الخيم المتقاربة ويتحدث كلٌّ منهم عن ذكرياته مع الشقاء الذي تسبب فيه الاحتلال الإسرائيلي البشع.

وحين أصبح الطفل موسى في الخامسة من عمره، قدّر الله له أن يشهد بعينيه صفحاتٍ مضافة من سفر العذاب الفلسطيني.

Musa Abu Marzuq: A Life Journey

Memoirs of Seeking Refuge, Emigration and the Years of Struggle

هذا الكتاب

أن تولد لاجئاً، وأن تعيش مناضلاً، وأن يضعك الله سبحانه في مشهد الصدارة لقيادة حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، فهذه ملحمة ومشوار حياة فيه الكثير من التحديات، ويتطلب من القائد حكمة بالغة وصبراً جميلاً، للحفاظ على توازن المسيرة وتحقيق الأهداف.

في هذا الكتاب، استعراض لصفحات النشأة في المخيم، ثم سنوات الدراسة والعمل داخل الوطن وخارجه.

بلا شك، كانت المحطة الأهم في هذه السرديّة، هي سنوات العمل، ثم الاعتقال في أمريكا، على خلفية قيادة المكتب السياسي لحركة حماس.

عامان كان فيهما الكثير من الأحداث والمعاناة والفرص لإبراز القضية الفلسطينية، وتجسيد خطاب حماس السياسي كأحد أهم معادلات الصراع مع الاحتلال، وفضح جرائمه التي كانت أمريكا—بانحيازها لـ"إسرائيل"—تعمل على تعطيلها، وإفشال أي جهد دولي أو إنساني لنُصرة الفلسطينيين وقضيتهم.

هذا الكتاب يعرض الجزء الأول من الرواية، والتي ستكتمل تفاصيلها فيما هو قادم من أجزاء أخرى إن شاء الله.

ISBN 978-9953-572-82-6

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب: 14-5034 بيروت - لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت